مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي سيدنا محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد؛ فهل بقي شك في أن بابا جديدا من أبواب الفتن، قد انكسر فعلا على العالم اليوم؛ عندما انقدحت شرارة العولمة، ريحا عقيما تعصف بالأرض؟

وهل بقي شك في أننا نعيش زمان تتابع الفتن، وتواتر المحن! على ما ورد في قول رسول الله ﷺ: "تَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا".[1]

ألا ما أحوج العالم اليوم إلى النور!

---

(١) رواه الترمذي بسند صحيح؛ صحيح الجامع الصغير، رقم الحديث: ٢٩٩٣.

وعجبا! كيف يصر الإنسان على التيه في الظلمات، ولا يستمد الشعاع من النور والنور قريب؟ ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(النور:٣٥)، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦). عجبا! وهذا القرآن العظيم يمد المؤمنين بنور لا يخبو أبدا! ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۞ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ۞ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۞ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(الشورى:٥٢-٥٣).

فأين الإنسان؟

تَجَلّي النُّورِ فَوْقَ الطُّورِ بَاقٍ فَهَلْ بَقِيَ الكَلِيمُ بِطُورِ سِينا؟[1]

ولقد تجلى إعجاز القرآن لكل زمان، بصورة مناسبة لإنسان ذلك الزمان. وذلك ضرب آخر من ضروب الإعجاز! حتى جاء عصر ظلمات الفتن، التي أنذر رسول الله ﷺ باندلاعها على أمته! فتجلى إعجاز القرآن -مرة أخرى- نورا أبصره الربانيون! فكشفوه للناس، كلٌّ حسب منزلته من موقع التلقي.

لما كان أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، كانت الأمة الإسلامية بأكملها تقريبا؛ ترزح تحت كابوس الاستعمار! وكانت ظلمات! ثم كان النصف الأول من القرن العشرين مرحلة لانتشار الأيديولوجيات، والفلسفات المنكرة للدين والمشككة في حقائقه! فكانت ظلمات أخرى! وهنالك احتاج المسلمون إلى تجديد الصلة بالنور. ولكن للأسف كانوا لا يبصرون! على حد قول الله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾(الأعراف:١٩٨)، وقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ

(١) البيت للشاعر محمد إقبال، رحمه الله.

وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف:١٠٥). فاحتاجوا بذلك إلى "مُبَصِّرين"، وليس إلى "مُبْصِرين" فقط! فليس صدفة إذن؛ أن انطلق بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، في هذه الفترة بالذات: (١٨٧٦م-١٢٩٤هـ إلى ١٩٦٠م-١٣٧٩هـ) يكشف إعجاز القرآن نورا، ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٦).

فعندما داهمت ظلمات العلمانية العالم الإسلامي، اختلف العلماء والمصلحون حول أشكال مناهضتها، من القتال الجهادي إلى السجال الفكري! واختار بديع الزمان حمل راية "إعجاز القرآن"، والعمل تحت رايتها فقط! بيد أن "إعجاز القرآن" كما حمله النورسي رحمه الله لم يكن مجرد درس بلاغي عتيق! بل كان منهجية جديدة لتبصير المسلمين حقائق القرآن في النفس وفي المجتمع، وبعث روح القرآن فيهم! فكيف بقوم انبعثت فيهم روح القرآن؟ ذلك هو الإعجاز! لقد كان الأستاذ رحمه الله ملقنا لبصائر القرآن بامتياز! وهنالك يكمن سر نجاحه التجديدي للدين. ذلك النجاح الذي لم يمت بموته، كلا! بل استمر نوره متدفقا على العالم، شاقا طريقا من نور غريب نحو المستقبل. فإنما كان يقرأ القرآن ويفسره بمنهج استبصاري نادر! ومن هنا فإنك -وأنت تقرأ كلماته رحمه الله- تجده يخاطب من حين لآخر أجيالنا والأجيال التي بعدنا بوعي تام! وذلك من مثل قوله في نداء استبصاري عجيب: "يا إخوتي! ويا زملائي الذين يسمعون هذا الكلام بعد خمسين عاماً!".[1]

ولذلك فإنك لما تقرأ كليات رسائل النور؛ تشعر كأنما هذه الرسائل

(١) صيقل الإسلام، ص ٥١٨.

قد كتبت لزماننا هذا، أو كأنما كتبت للتو على إثر أحداث وقعت في المسلمين الآن، ولما نخرج من لهيبها بعد! ولا تكاد تسأل في حيرة الفجيعة: كيف الخروج؟ حتى تجد رسائل النور تسبق إليك بالجواب! تنتشلك من ظلمات الحيرة والاضطراب، وتوقظ وجدانك: أن افتح عين قلبك! وأُذُن روحك! وشهود بصيرتك! لتتلقى نور القرآن بنفسك، لا بواسطة غيرك؛ فتكون من المبصرين!

يقول رحمه الله في سياق تلقينه بصائر القرآن: "أتكلم في مكاني، لا في مقام السامع المواجه لي -خلافاً لسائر المتكلمين، الذين يفرضون أنفسهم في مقام السامعين- فيصير أمام كتابي [الذي] وجههُ إليّ، ومعكوسه ومقلوبه إلى السامع، فكأنه يقرأ في المرآة فيتعسّر عليه؛ فإذاً لا أذهب إلى مقامه، فليرسل هو خياله إليّ لأضيفه على عيني، في رأسي؛ كي يرى كما أرى!"[1]

إن بديع الزمان حينما اختار طريق البيان لإعجاز القرآن؛ إنما اختار طريق العروج بالمسلمين إلى المقامات العلى، من الوعي بالوجود الديني، والتميز الحضاري. لقد اختار أن ينخرط في البناء الشامل لصرح "الأمة"! وليس فقط لبعض جزئياتها، أو لدفع بعض أزماتها العابرة، أو المتوهمة. ولطالما أُشغل المصلحون بأزمات وهمية؛ إلهاء لهم عن صلب القضية الكبرى: بناء جيل القرآن! وذلك ما لم يكن ليكون إلا ببيان "إعجاز القرآن"، بالمفهوم الذي عرضناه عند بديع الزمان النورسي رحمه الله، فلله درّه! أي رجل كان!؟

لقد جاء على موعد مع التاريخ؛ ليكون به ما أرد الله لهذه الأمة، من

(١) المثنوي العربي النوري، ص ٢١٨.

إنقاذ الإيمان في الحاضر، وبناء الأمة للمستقبل! وقطعا لم يكن خروجه ببلاد الخلافة الإسلامية عبثا، أو صدفة، بل كان بعثة تجديد، وقَدَراً مقدورا! ما يزال يمتد في أفق هذه الأمة، ومستقبلها بتجليات شتى! اقرأ هذه القصة التي يحكيها عن نفسه رحمه الله في بيان نقطة البدء، تحت عنوان: "رؤيا صادقة حول إعجاز القرآن:

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقبل إبّان نشوبها رأيت في رؤيا صادقة الآتي:

رأيت نفسي تحت جبل "آرارات".. وإذا بالجبل ينفلق انفلاقاً هائلاً، فيقذف صخوراً عظيمة كالجبال إلى أنحاء الأرض كافة! وبينما أنا في هذه الرهبة التي غشيتني رأيت والدتي -رحمة الله عليها- بقربي. قلت لها: لا تخافي يا أماه! إنه أمر الله، إنه رحيم، إنه حكيم. وإذْ أنا بتلك الحالة؛ إذا بشخص عظيم يأمرني قائلاً:

- بَيِّنْ إعجاز القرآن!

أفقتُ من نومي، وأدركتُ أنه سيحدث انفلاق عظيم! وستتهدم الأسوار التي تحيط بالقرآن الكريم؛ من جراء ذلك الانفلاق والانقلاب العظيم! وسيتولى القرآن بنفسه الدفاع عن نفسه! حيث سيكون هدفاً للهجوم، وسيكون إعجازه هو حصنه الفولاذي، وسيكون شخص مثلي مرشحاً للقيام ببيان نوعٍ من هذا الإعجاز في هذا الزمان -بما يفوق حدّي وطوقي كثيراً- وأدركتُ أني مرشح للقيام بهذا العمل!".[1]

فلم يلبث أن وجد الرجل نفسه -بعد ذلك- يشق حياته بحثا عن حقائق القرآن. ووجد نفسه يسلك مسالك، كأنما يُدْفَعُ إليها دفعا، من غير تفكير

(١) المكتوبات، ص ٤٧٥، سيرة ذاتية، ص ١٢٠.

منه سابق، ولا إرادة! ليخرج من جبته "سعيد الجديد"[1]: الرجل القرآني، الذي كشف إعجاز القرآن؛ فحاصر العلمانية الرسمية بين أبراجها. ثم انخرط في تجديد بناء الأمة من القواعد! قال رحمه الله: "إن أكثر أحداث حياتي، قد جرت خارجة عن طوق اقتداري، وشعوري، وتدبيري؛ إذ أُعْطِيَ لها سيرٌ معينٌ، ووُجِّهت وجهةً غريبةً؛ لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم. بل كأن حياتي العلمية جميعها بمثابة مقدمات تمهيدية؛ لبيان إعجاز القرآن!"[2] فكان بديع الزمان سعيد النورسي في صورة "سعيد الجديد"! وكانت "كليات رسائل النور"!

تلك إذن؛ كانت قصة بدء حركة النور، ذلك المشروع الدعوي الهام! وتلك التجربة الإيمانية المتميزة، المنطلقة من بلاد الخلافة العثمانية، في ظرف تاريخي حاسم. حيث نمت وترعرعت حتى صارت دوحة عالية في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ومن أجل ذلك كانت هذه الدراسة المتواضعة، لكليات رسائل النور في صورة مصطلحية؛ لإخراج معجمٍ للمصطلحات المفتاحية الواردة بها، تحت سيماء: "مفاتح النور".

والدراسة المصطلحية علم منهجي قائم بذاته. ينهض بدراسة المصطلح العلمي باعتباره جوهر العلم وأساس وجوده. إذ هو كما وصفه -بأدق ما يكون الوصف- فضيلة الدكتور الشاهد البوشيخي، إذ قال: "والمصطلح -كائنا ما كان- إما واصف لعلم كان، أو ناقل لعلم كائن، أو مؤسس

(١) ميّز سعيد النورسي في رسائله بين شخصيتين من ذاته: الأولى شخصية "سعيد القديم" وهو الرجل الذي اختار الانخراط في الصراع السياسي، وذلك كان هو سعيد النورسي قبل الأربعين من عمره. أما "سعيد الجديد" فهو الرجل القرآني الذي تفرغ لبناء المنهج القرآني في المجتمع، مرددا عبارته المشهورة: "أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة!".

(٢) سيرة ذاتية، ص ١٠.

لعلم سيكون!"[1] وإذا كان كذلك؛ فلا علم إلا وهو مُنْبَنٍ -في مقولاته المفهومية- على مصطلحاته. وهذا أمر ظاهر. ومن هنا كان قولنا: "إن المصطلح هو العلم"[2] على سبيل الاستغراق الكلي للفظ "العلم". وثبات المعنى الحاصل في الجملة الاسمية بإطلاق! مع العلم أن ذلك ليس دالا بالضرورة على انطباق الحكم نفسه على "الدراسة المصطلحية" من حيث هي منهج للدراسة. إذ ما هي إلا اجتهاد من الاجتهادات ضمن إمكانات مناهج دراسة المصطلح. وإن كنا نزعم أنها -إلى هذه اللحظة- أجود ما عرف في مجال دراسة المصطلح. إلى جانب مناهج المعجمية والقاموسية وما يعرف بالدراسات التأثيلية.[3]

إن المصطلح -من حيث هو مفهوم واقع في الوجود ابتداءً- يمثل الحقيقة الوجودية الأولى للعلم. أيّ علم! فهو إذن؛ الجوهر من سائر المعارف الكونية. وما القضايا العلمية الحاصلة بعد -البناء عليه- إلا أعراض قائمة به. تماما كقيام الألوان بالأجسام. لولا هذه ما حصل إدراك تلك.

والمصطلح إنما هو في نهاية المطاف تسمية عَلَمِيَّةٌ على مسماها من المفاهيم العلمية. فهو إذن؛ اسم عَلَمٌ على بنات العلم.

ولإدراك هذا المعنى؛ نورد قول الله ﷻ في قصة بدء الخلق البشري: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١) ذلك أن "الكلام" كما يقول النحاة:

---

(١) مصطلحات النقد العربي، للدكتور الشاهد البوشيخي، ص ٧.

(٢) المصطلح الأصولي عند الشاطبي، للدكتور فريد الأنصاري، ص ١١.

(٣) البحوث "التأثيلية": هي التي تعنى بدراسة الأصول الاشتقاقية، وتاريخ تفرعها. انظر: قاموس اللسانيات، للدكتور عبد السلام المسدي، ص ٢١. وأما القاموسية فهي: "علم صناعة القواميس، أي الكتب المحتوية على رصيد لغوي مرتب، ومشروع. وأما المعجمية: فهي علم دراسة الألفاظ من جميع نواحيها، والبحث في صيغها واشتقاقاتها ومعانيها". من تعليق الدكتور عبد العلي الودغيري على كتاب "منهج المعجمية" لمؤلفه جورج ماطوري، ص ١٦٠.

obeikandl.com

اسم وفعل وحرف. ولا شيء يستقل بذاته منها إلا الاسم. لأن الحرف مفتقر إلى غيره كما قالوا. وأما الفعل فلا وجود له إلا بحركة الفاعل الحسية أو المعنوية. أي إنه هو أيضا مفتقر إلى الفاعل بالمعنى الوجودي. فكان الفاعل هو الأصل في الجملة من حيث هي حقيقة مستقلة. وكذلك المبتدأ في الجملة الاسمية. وأما ما أسند إليه من الأخبار والصفات، أو نحوهما؛ فهو مفتقر إليه وقائم به، قيامَ الأعراض بالذوات.

وإن دل هذا على شيء؛ فإنما يدل على أن الحقائق الأولى للوجود إنما هي الذوات. وسواء كانت ذوات مادية كأسماء الأشياء والأجرام، أو ذوات معنوية، كأسماء المعاني وسائر الحقائق الذهنية، والمعقولات، كالأمن والخوف والحب والبغض والموت والحياة... إلخ.

ومن هنا كان قول الخالق جل وعلا: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣١). هكذا بصيغة العموم غير المخصص، بل المؤكد استغراقه لكل "اسم". هكذا: "كلها"! لأن الأسماء هي أساس الموجودات فلم يبق بعد ذلك من حقائق الوجود إلا العلاقات القائمة على الربط بين الأسماء بالوظيفتين الحرفية والفعلية، ولهذا فالفعل يؤول بالمعنى الوجودي -لا النحوي- إلى الحرف! أي من حيث هو مفتقر في وجوده إلى غيره كما بينا.

ومن أدق الإشارات العلمية في هذا الصدد، ما بينه الأستاذ بديع الزمان النورسي استِبحَاءً من الدرس النحوي في تقسيم "الكلام"، وما وظفه من ذلك، لكن في تقسيم الموجودات، باعتبار الفناء والبقاء؛ إلى "معنى اسمي" و"معنى حرفي". قال مجيبا عن سؤال في الموضوع لأحد طلابه: "أما سؤالك (...) الذي يتعلق ببحث "المعنى الاسمي" و"المعنى الحرفي"، فمثلما أشارت كتب النحو عامة إليه في بداياتها، فقد وضحته

توضيحاً كافياً بالأمثلة كتب علم الحقيقة كالكلمات والمكتوبات (...) فإنك إذا نظرت إلى المرآة من حيث إنها زجاجة، ترى مادتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شيئا ثانويا، بينما إن كان القصد من النظر إلى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها؛ فالصورة تتوضح أمامك حتى تدفعك إلى القول: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون:١٤) بينما تبقى زجاجة المرآة أمراً ثانوياً.

النظرة الأولى تمثل "المعنى الاسمي"، أي إن زجاجة المرآة معنى مقصود، وصورة الشخص المتمثلة فيها "معنى حرفي" غير مقصود.

أما النظرة الثانية؛ فصورة الشخص هي المقصودة، فهي إذن "معنى اسمي"، أما الزجاج فمعنى "حرفي".

وهكذا ورد في كتب النحو تعريف الاسم بأنه: "ما دلّ على معنى في نفسه. أما الحرف فهو: ما دلّ على معنى في غيره".[1]

فكذلك وضع المصطلح من سائر العلوم والمعارف: هو "المعنى الاسمي"، وما سواه مما تركب عليه وقام به هو "المعنى الحرفي". إذ أن أركان العلم أي علم تنقسم إلى ثلاثة أقسام: هي المصطلح والقاعدة والمنهج. فأول ما ينشأ من العلوم مصطلحاتها، إذ تنشأ المفاهيم أولا فيحتاج العلماء للتعبير عنها وبذلك تتولد المصطلحات. فهذه إنما هي تسمية لمواليد العلم من سائر المفاهيم والمقولات. التي هي أساس تكوين العلم ونشأته. وانظر في أي علم شئت! فذلك أول تكوينه. وتلك هي مرحلة طفولة العلم، ثم يشب بعد ذلك فتتعقد قضاياه، فيحتاج للتعبير عن تلك القضايا المعقدة إلى جمل وصفية مركبة، ذات وظائف

(١) اللمعات، ص ١٧١-١٧٢.

إجرائية للتحليل والتركيب، وهي قواعد العلم. كما هو الشأن في علوم الشريعة مثلا، عند إيراد قواعد الفقه أو الأصول أو الحديث أو نحو ذلك. فقولهم مثلا "الضرورات تبيح المحظورات" قاعدة لحل إشكال تركب من تعارض خطابين على المكلف بسبب ظروف حاله وزمانه ومكانه. التي هي الضرورة؛ فيخاطَب آنئذ بالقاعدة لحل الإشكال ورفعه. ثم يتطور العلم بعد ذلك إلى مرحلة النضج والاكتمال؛ فتتكون المناهج الاستنباطية والإنتاجية لتجديد العلم، كالاستقراء والقياس، وسائر مناهج الاستدلال. وذلك هو العلم كله. فلم يبق بعد ذلك منه شيء!

وإذا عدنا إلى مقولة: "المصطلح هو العلم"؛ وجدنا أن المناهج التي هي ركن الاكتمال من العلم، ليست سوى تركيب قاعدي في نسق معين من شأنه إنتاج البحث في العلم. فالقياس مثلا من حيث هو منهج للبحث والاستدلال ليس سوى توظيف متناسق لمجموعة من القواعد العلمية الدائرة داخل منظومة القياس، كقولهم: "الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما، فإذا وجدت العلة وجد الحكم، وإذا انعدمت العلة انعدم الحكم"، وقولهم: "لا قياس مع وجود الفارق"، وقولهم أيضا: "لا قياس مع النص"، وكذلك كل قواعد "تخريج المناط" و"تنقيحه" و"تحقيقه"، وقواعد "السبر والتقسيم" لاستنباط العلة...إلخ. فكل ذلك حاضر سلبا أو إيجابا؛ عند إعمال منهج القياس في البحث والاستدلال. فلا يتصور قياس في الواقع إلا بإعمال قواعده. ومن هنا كان المنهج -أي منهج- مجموعا نسقيا من القواعد التي تشكل حقيقته.

وأما مفهوم "القاعدة" التي هي فرد من أجزاء المنهج المكونة لحقيقته؛ فليست سوى مجموع نسقي من المصطلحات. كما إذا تأملت القاعدة

الفقهية السالفة الذكر: "الضرورات تبيح المحظورات"، أو أي قاعدة أخرى من قواعد العلم، مما ذكر أو غير ذلك بإطلاق؛ وجدت أن القاعدة مجرد مصطلحات تركبت في نسق استدلالي. فالقاعدة المذكورة أخيرا تقوم على مفاهيم ثلاثة، هي: الضرورة، والإباحة، والمحظور. لكنها تركبت فيما بينها على شكل نسق استدلالي؛ فكانت القاعدة: "الضرورات تبيح المحظورات". ومن هنا كان فهم القاعدة خارج نطاق فهم المصطلح أمرا مستحيلا! تماما كما لا يمكن فهم المنهج خارج نطاق قواعده.

فإذا آل أمر المناهج في الفهم إلى القواعد، وآل أمر فهم القواعد إلى مصطلحاتها، ثم تبين أنه ليس قبل المصطلح شيء من العلم؛ تَحَصَّلَ إذن من ذلك كله أن فهم العلم إنما يبدأ بفهم المصطلح! وأن مآل العلم في التكوين والتجديد إلى المصطلح. ولذلك كانت عبارة الخوارزمي في تسمية كتابه: "مفاتيح العلوم" أدق عبارة في تسمية وظائف الاصطلاح!

وبناء على ذلك كله؛ قررنا -بحول الله- أن ننجز دراسة مصطلحية، تقدم للناس فكر الأستاذ بديع سعيد الزمان النورسي رحمه الله، في صورة معجم اصطلاحي، من خلال رسائله. لكن طبعا ليس في صورة المعجمية التقليدية، القائمة على التعريفات الجزئية؛ ولكن في صورة الدراسة المصطلحية، القائمة على "المنهج الوصفي"[1] لإنتاج التعريفات الكلية

(١) يقوم "المنهج الوصفي" في الدراسة المصطلحية على مراحل محددة، تبدأ بالإحصاء الشامل، والاستقراء التام؛ لموارد تلك المصطلحات عند عالم معين، أو في كتب قرن معين، ثم تصنيفها حسب "أُسَرِها الاصطلاحية"، وذلك بجمع نصوصها، ودراستها نصا، نصا، وهو ما يسمى "بالدراسة النصية"؛ لاستنباط معانيها الجزئية الواردة عند كل نص، لتدرس بعد ذلك لغويا، ثم معجميا، وعندئذ يُرْجَع إلى مفاهيم النصوص؛ للنظر في المعنى الكلي، المتحصل من مجموع الجزئيات المدروسة قبل، فيرفع التعارض، وينزع التشابه، ثم يجمع بين المؤتلف حقيقةً، ويفرق بين المختلف طبيعةً؛ كل ذلك لإنتاج التعريف الكلي، الذي يُعْرَض بعد ذلك ضمن دراسة مفصلة لعناصره، تحيط بشخصية المصطلح، وتكشف عن هويته.

الاستقرائية، التي تقدم مفاهيم النورسي بشكل شمولي، لا يلغي شيئا من عناصرها، ولا يدع شبهة من شبهاتها. وبينهما فرق كبير، كما سترى بحول الله.

بيد أنه لم يكن يخطر بالبال؛ وأنا أشرع في قراءة "كليات رسائل النور"، للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي -رحمه الله- أن هذا التراث الضخم الذي تركه يكتنز قاموسا مصطلحيا خاصا، بل كان الانطباع الأولي أن هذه الألفاظ المستعملة عنده لا تخرج عن القاموس الصوفي بمعناه التقليدي. بيد أن هذا الانطباع الأولي لم يلبث إلا قليلا؛ حتى بدأت أدرك -بعد غوص في بحار "الكليات" الزاخرة- أن الأمر يتعلق بعالم جديد كل الجدة، من تراث المصطلح الإسلامي الأصيل!

لقد فوجئت بثروة مصطلحية نادرة، وكنز مفهومي ثمين! يشعر الدارس أن وراءه عبقرية ذات حس مصطلحي دقيق!

إن قارئ رسائل النور قد يتوهم لبادئ الرأي؛ أنها صفحات من الوعظ والذكرى فحسب؛ أو ورقات في أدب الدنيا والدين، على غرار ما كتب كثير من السابقين، لكن الباحث المتعمق، الصبور على المتابعة والاستقراء، ليكتشف أن الأمر يتعلق "بفلسفة" خاصة للكون والحياة والمصير! إلا أنها "فلسفة" مستنبطة من القرآن الكريم، سواء فيما يتعلق بمصطلحاتها ومفاهيمها، أو ما يتعلق بقضاياها وإشكالاتها؛ ومن هنا عمق الجهاز المفهومي لدى بديع الزمان.

إلا أن المصطلح لديه -رحمه الله- يصعب تصنيفه على الطريقة التقليدية. وإن المرء ليحار فعلا كيف يصنف مصطلحاته؟ وإلى أي علم ينسبها؟ أإلى القرآن وعلومه؟ أم إلى الكلام وعلم العقائد؟ أم إلى

التصـوف وعلـوم الأخلاق؟ أم إلى الفلسـفة بمعناها التقليدي؟ أم إلى غير هذا وذاك؟

إن مصطلحات النورسي في أغلبها "قرآنية" محضة، لكنها "نورسية" التحقيق والتأويل. بمجرد أن تكشف لثامها تبصر حقائق القرآن وأنواره منزلة على عصر النورسي وزمانه، وإذا بها حركة تنشط في النفس والمجتمع، لتنطلق بقوة متدفقة نحو المستقبل! كما أنها قد تكون في بعض الأحيان شبيهة بالمصطلح الصوفي، إلا عند التحقيق -كما سترى بحول الله- "قرآنية" المفهوم والتأصيل، "نورسية" الذوق والتحليل. ولا يمكنك أن تقول غير ذلك! خاصة وأنه رحمه الله انتقد غير ما مرة مناهج علماء الكلام، والفلاسفة، والمتصوفة جميعا، وصرح بأنه اختار "طريق القرآن"، أو "معراج القرآن"! فكان مصطلحه كما قال.

وأنت تقرأ للنورسي تدرك أن الرجل كان متضلعا من كل ما انتقده! الفلسفة والكلام والتصوف! كما أنه كان على صلة بعلوم العصر الحديث!

عبقريـة النورسـي هذه تطل عليـك بقوة من خلال لغتـه الاصطلاحية الخاصـة، لتفـرض عليـك التقديـر والإجلال؛ لهـذا الرجـل الذي خاض معركـة المصطلحـات والمفاهيـم، من خلال خوض معركـة الإيمان، في بلد كان ساسـته ونخبته يشـيعون فلسـفة الإلحاد والإباحية! ولذا يمكنك حقـا أن تقـول -ولا تكـون إلا صادقا-: لقد كان النورسـي يحارب تحت راية القرآن!

والقرآن كما يُدْرَس يتذوق؛ ولذلك فقد جمعت مصطلحات بديع الزمان بين دقة العلم، ولطافة الذوق، يبني عليها البرهان، ويرص بها الحجاج، فإذا محصتها وجدتها كما سيأتي قوله عن براهينه كالضوء، أو

كالهواء، أو كالماء، إذا أنت فركتها سالت، أو تبخرت، أو طارت بعيدا في الفضاء!

ومن هنا لم يكن من السهل أن تخضع لمناهج الدراسة المصطلحية الصارمة، بصورة "قياسية" مطلقة، دون أن يضطر الدارس إلى أذواق "الاستحسان"، لصياغة تعريف، أو معالجة مفهوم! و"الاستحسان تسعة أعشار العلم" كما قال مالك رحمه الله. كما أن القياس إذا اطرد ربما أدى إلى فساد، كما قرره الأصوليون!

بهذا إذن، نشرع بحول الله في إعداد معجم لمصطلحات الأستاذ النورسي رحمه الله، "مستأنسين" بالمنهج الوصفي، المعتمد في الدراسة المصطلحية، في مثل هذه الموضوعات.

ونزولا عند اقتراح فضيلة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي حفظه الله؛[1] في إخراج المعجم مجزءا؛ نشرع في إخراج معجم "مفاتح النور" -كما أحببنا أن نسميه؛ انسجاما مع "كليات رسائل النور"- في سلسلة من المصطلحات المفتاحية، نبتدئها بهذه المصطلحات الستة: "التوحيد، والإنسان، والكون، والقرآن، والانتساب، والأخلاق"، نعرضها مرتبة هكذا في ستة فصول، باعتبارها أهم المفاتيح المفهومية، التي تكشف عن طبيعة المنظومة الفكرية، لدى الأستاذ النورسي رحمه الله.

ولابد -بين يدي ذلك- من بيان بعض "المتشابهات"، في فكر الأستاذ النورسي رحمه الله، والتي لابد من تَبَيُّنها، ومعرفة ظروفها؛ لمن أراد أن يفهم النورسي حق الفهم، وإلاّ فربما ظلم الرجل، ووصفه بما ليس فيه. وذلك من خلال ما يلي: عناصر ظرفية أساسية لفهم فكر النورسي وشخصيته:

(١) الأستاذ إحسان قاسم الصالحي: مترجم كليات رسائل النور إلى اللغة العربية.

أولا: أكثرَ النورسي رحمه الله من أساليب التحدي برسائل النور؛ مما قد يوهم في ظاهره أنه كان معجبا بنفسه أو بفكره، مع أنه كان رحمه الله من أشد علماء عصره إنكارا للذات! والسبب في ذلك أنه إنما كان يتحدى أهل الإلحاد والزندقة، الذين أعلنوا التمرد على الله جل وعلا! حيث كانت موجات الإلحاد آنئذ تكتسح العالم الإسلامي، باسم الفلسفة حينا، وباسم الثورية حينا آخر، مع انتشار أنصار الفكر الماركسي اللنيني في كل مكان! وطغيان العلمانية المناهضة للدين وللإيمان في تركيا التي قادت حركة تجفيف منابع الدين في كل البلاد! فغلقت كثيرا من المساجد وحولت بعضها إلى متاحف! وأصدرت قوانين تحظر الأذان الشرعي، والخط العربي، وتدريس الدين بالمدارس، وتمنع كل مظاهر التدين الاجتماعية، في الأزياء والأشكال والألقاب؛ حتى صار الناس يخفون المصاحف عن العيون ويُهَرِّبونها كما تُهَرَّب الممنوعات! ومن ضُبِط متلبسا بشيء من ذلك شنق على مرأى من الناس، وعلق على رؤوس الأعمدة الكهربائية في الشوارع والطرقات! فما بالك إذن بعالِم يخرج على الناس في مثل هذه الظروف الرهيبة يدعو إلى الإيمان بملء صوته؟ إنه لم يكن أمام بديع الزمان إلا إعلان التحدي! وإلا فقد ضرب أروع الأمثلة رحمه الله في نكران الذات! وقد اشتهرت كلمته في مخاطبة نفسه قائلا: "يا سعيد! كن صعيداً! في نكران تام للذات، وترك كلي للأنانية، وتواضع مطلق كالتراب؛ لئلا تعكر صفو رسائل النور، وتقلل من تأثيرها في النفوس!"[1] وكذلك قد كان!

ونظرة سريعة في ملخص "كرونولوجيا" حياته وأهم أحداث زمانه

(١) الملاحق، ص ١١٠.

رحمه الله، تنبئك عن طبيعة حياته كيف عاشـها، وعن الظروف التي كتبت فيها رسائل النور، وأنتج فيها فكره.

هكذا إذن؛ ألّف النورسي رسائل النور، عبر حياة متنقلة من سجن إلى سجن ومن منفى إلى آخر! ما بين رجل العلم والسياسة، الذي هو: "سعيد القديم"، إلى رجل القرآن والتربية، الذي هو "سعيد الجديد"؛ كان النورسي ينسج غلائل النور عبر رسائله بالعربية حينا وبالتركية حينا آخر. إلى أن تم جمع ذلك وتحقيقه وترجمته؛ من لدن الأستاذ إحسان قاسم الصالحي. جعله الله سببا لكل خير، وتقبل عمله في الصالحات. كل ذلك أدى إلى أن تكون رسائل النور ذات تداخل موضوعي واصطلاحي، فيها تسجيل لمراحل من عمر النورسي الحافل المديد (٨٤ سنة)، وفيها نصوص وقضايا لا يتم فهمها إلا بردها إلى نواسخها، كما أن فيها جزئيات هي -إن عزلت- أشبه ما تكون بالزلات! فلا يمكن فهمها إلا بإدخالها ضمن كُلِّيّهَا! وقد تأولت للأستاذ رحمه الله، وحملت كلامه على أحسن محامله، كما تأول الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه العظيم مدارج السالكين؛ لشيخ الإسلام الهروي الأنصاري صاحب منازل السائرين. وذلك هو ديدن أئمة الهدى من هذه الأمة عبر التاريخ.

ثانيا: استصحب النورسي في رسائله كثيرا من الاصطلاحات الصوفية، لكـن علـى غير دلالاتها الأصلية. فقد شـحنها في كثير من الأحيان بمعان قرآنية محضة، وجعلها تنطق ببصائر القرآن، بينةً كأوضح ما يكون البيان. وربمـا كانت في أصلها التراثي ذات شـطحات صوفية. وإنما يعرف ذلك عنده بالتتبع والاسـتقراء الذي هو مبتدأ المنهج في الدراسـة المصطلحية. لكـن قد يبقى منها شـيء يخرج عـن المنطق العام لكليات رسـائل النور.

فمثل هذه وجب أن ترد إلى الأصل المحكم عنده، والذي عليه المعول في فكره، وهو نفي الشركيات والخرافيات والضلالات. وله في ذلك صولات وجولات، هي أصول فكره، وقواعد منهجه. منها قوله رحمه الله، مقسما طرق المعرفة إلى أربعة: "أولها: منهاج علماء الصوفية، المؤسس على تزكية النفس والسلوك الإشراقي. وثانيها: طريق علماء الكلام المبني على الحدوث والإمكان (...) وثالثها: مسلك الفلاسفة. فهذه الثلاثة ليست مصونة من الشبهات، والأوهام! ورابعها: المعراج القرآني: الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان. ونحن قد اخترنا هذا الطريق!"[1] ثم يقول في موطن آخر بوضوح أكبر: "ثم إن هذا الطريق أسلم من غيره؛ لأن ليس للنفس فيه شطحات، أو ادعاءات فوق طاقتها! إذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز، والفقر، والتقصير، كي لا يتجاوز حده!".[2]

أما محكمات الحق عنده رحمه الله فهي جمهور كليات رسائل النور، التي إليها يرد كل متشابه.

ثالثا: أن أكثر رسائله إنما ألفها إملاءً، لا كتابةً وتصنيفا، وفي ظروف متقطعة؛ بسبب تواتر المحن في حياته رحمه الله. وقد تجد بين تواريخ إملائها فترات من عدة سنوات؛ فكانت الرسائل لذلك يتخللها البتر، أو قل: "البياض"، بمعناه في الاصطلاح الأدبي الحديث: الذي يدل على الكلام "المسكوت عنه"، لحكمة ما، أو لظرف سياسي ما! حيث يكون التعبير الأبلغ هو الصمت! ولمثل ذلك سك الحكماء عبارتهم المشهورة:

(١) صيقل الإسلام، ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) الكلمات، ص ٥٦١.

"الصمت حكمة!" فيكون عنوانه المجمل، وأسطره الفارغات -في سياق ترتيبها من الكليات- ناطقة بما لم تنطق به العبارات!

ومن هنا فقد تجد مثل هذه العبارات كما في مجلد الكلمات: "لم يكتب هذا المقام بعدُ!".[1] وكما في: "الكلمة الثامنة عشرة: لهذه الكلمة مقامان. ولم يكتب بعدُ المقام الثاني!".[2]

ومن هنا إذن؛ تبرز أهمية الدراسة المصطلحية لمصطلحات كليات رسائل النور؛ إذ أنها المانع من فهم النصوص معزولةً عن سياقها الكلي، والضامن لإدراجها في موقعها الطبيعي، ضمن منظومته الفكرية، التي قد يأتي شرح بعضها لبعض، في مواطن مختلفة، وعبر رسائل متعددة؛ تخصيصا أو تقييدا، أو نسخا. فليس بالضرورة أن تجد الموضوع الواحد، قد قال فيه النورسي كل ما أراد في الموطن الواحد. بل ربما لن تظفر بالتصور الكلي للمعنى الواحد إلا بتركيب النصوص من عدة رسائل. وقد كانت الدراسة المصطلحية خير كفيل بذلك؛ لما تتمتع به من منهجية صارمة في تتبع آحاد المعنى لبناء كليات المفاهيم.

وقبل أن أقفل باب هذه المقدمة؛ وجب التنويه والاعتراف بالفضل، لأستاذنا وأستاذ الأجيال بالمغرب، فضيلة الدكتور الشاهد البوشيخي، مدير معهد الدراسات المصطلحية بفاس، الذي كان سببا في هذا العمل، حيث انتدبني لهذه المهمة من الدراسة المصطلحية لكليات رسائل النور؛ فكان لي بذلك سببا في التعرف على كنز ثمين من البصائر القرآنية، والحقائق الإيمانية. فله من الله الجزاء الأوفى.

---

(١) الكلمات، ص ١١٥.

(٢) الكلمات، ص ٢٤٨.

كما أنه وجب التنويه والشكر، للأستاذ الفاضل إحسان قاسم الصالحي، رئيس مركز دراسات رسائل النور بإسطنبول، الذي وجب البيان في حقه أنه لم يترجم رسائل النور بمقاله فحسب؛ ولكنه ترجمها أيضا بحاله ونشاطه. ولم يزل مذ من الله علي بمعرفته خير معين ومرشد لي في عملي هذا، ناصحا ومرشدا ومسددا. حريصا على تمامه أشد ما يكون الحرص! فبارك الله في جهوده، وتقبل منه أعماله في الصالحات.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحشر:١٠).

سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

وكتبه بمكناسة الزيتون من حواضر المغرب الأقصى، راجي عفو ربه وغفرانه: فريد بن الحسن الأنصاري، غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين. وكان ذلك بتاريخ: ٤ ربيع الثاني من عام: ١٤٢٤هـ الموافق لتاريخ: ٢٠٠٣/٠٦/٠٤.

obeikandl.com